« توبال قايين » أو :

معجزة الحـــديد

للشاعر الإنجليزي تشارلس ماكاي

للأستاذ محمود عزت عرفة

[وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس]
سورة الحديد : الآية ٢٥

[وصلة أيضاً ولدت توبال قايين الضارب كل آلة من نحاس وحديد] سفر التكوين ٤ : ٢٢

تقدمة

كانت قصص الكتاب المقدس — وما تزال — مصدر وحي عميق لكتّاب الغرب وشعرائه ؛ فهي قد تركت بسهولة تعبيرها وبلاغة حكمتها ودقة تصويرها ، أثراً بالغاً وسمة واضحة الظهور في تفكير القوم وفي أسلوبهم ؛ كما ترك القرآن الكريم أثره البالغ الخالد في مختلف علوم اللغة العربية وآدابها ...

وهذه حقائق لا يتسع المقام هنا لشرحها . على أن في قصائد : مَهْلك جند سَنْحاريب ، ورؤيا الملك بَيْلْشاصّر ، ومرثية داود لابنه أَبْشالوم[1] وغيرها وغيرها من نفائس الأدب الإنجليزي ، ما يعتبر دليلاً واضحاً على صحة ما أشرنا إليه آنفاً ... والقصيدة التي نترجمها اليوم مما يدخل في هذا الباب . وهي من نظم الشاعر الإنجليزي تشارلز ماكاي Charles Mackay الذي عاش بين عامي ١٨١٤ ، ١٨٨٩م ؛ وقد اشتهر بمقطوعاته الغنائية الرائعة ، كما أنه ساهم في تحرير كثير من الصحف الصادرة على عهده ، في انجلترا واسكتلندا . وقد ورد في (معجم السِّيَر القومي : D. N. B.) البريطاني أن هذه القصيدة نشرت لأول مرة في صحيفة « لندن المصورة » عام ١٨٥١م . ولكن المحقق الإنجليزي س . ب . هويلر يقول إنه لم يعثر عليها في هذا المصدر ، وإنها نشرت لأول مرة عام ١٨٥٦م ضمن ديوان للشاعر عنوانه : أغاني وأناشيد شعرية .

(١) القصيدتان الأولى والثانية للشاعر الإنجليزي لورد بيرون (١٧٨٨ — ١٨٢٤م) والثالثة من نظم الشاعر الأميركي ن . ب . ويليس (١٨٠٦ — ١٨٦٧م) . ويجد القارئ قصة سنحاريب ملك آشور في سفر الملوك الثاني ، وولاية بيلشاصر وما حدث فيها في سفر دانيال ، أما حديث داود وابنه أبشالوم ففي سفر صموئيل الثاني ؛ وكلها من العهد القديم

ترجمة القصيدة

عاش توبال قايين[1] في بدء الحياة والكون طفل يحبو ؛ وكان فيناً صنّاعاً ذا أيدٍ وقوة ، لا ينفك لمطرقته دويّ ولأتونه لهيب ولظى ... كان يرفع مطرقته بساعده القوي المفتول ويهوي بها على الحديد الأحمر الوهاج ، فيتراءى من حوله الشرر كأنه شآبيب المطر الأرجواني . وما يزال حتى يستوي الحديد أمامه سيفاً قاطعاً أو سناناً لامعاً ، وإذ ذاك يصيح من قلب جذلان :

ألا بورك في هذه من صنعة بورك في تلك الظُّبا وهاتيك الشُّبا ! بورك لمن هزّ مشرفياً أو اعتقل رديناً فبهذين تمتلك النواصي ، وتُستدْنَى الآمال القواصي !

وكانت الرجال ما تنفك تهوى من كل فج إلى توبال قايين وهو على عمله عاكف يلتمس كلٌّ لنفسه سيفاً جُرازاً أو نصلاً قاطعاً ، ليحقق في الحياة مأرباً أو يحتاز رغبة . فكان يمدُّهم من السلاح بأنفذه ومن العُدة بأقواها ، حتى ليهتفون باسمه في نشوة من السرور ، ويغمرونه بعطاياهم من نفائس النضار وكرائم الجوهر وهم يقولون : ألا بورك فيك يا توبال قايين ؛ يا من تسبغ علينا من القوة لَبُوساً ، ومن البأس سرابيل ودروعاً بورك في القين وبورك في النار ! بورك في الحديد ذي البأس الشديد !

على أن خاطراً فجائياً احتل موطنه — في إحدى الليالي — من قلب توبال قايين ، فجاشت نفسه بالألم المض ، وامتلأ صدره من الكمد الموجع والهم المقعد المقيم على ما قدم من الشر وأسلف من سوء الصنيع !

رأى الناس قد أذكوا فيما بينهم نار حرب عوان ، يتدافع من ثورات الغضب ونفثات الحقد ؛ وخضبوا وجه الأرض بمسفوح الدم ، في لحظات من جنونهم ونشوات نفوسهم العوارم ، فصاح من قلب مفجّع منكوء :

وا أسفاه على ما قدمت يداي ! وتعساً لتلك المهارة التي

(١) توبال بن لامك (من زوجته صلة) بن متوشائيل بن محويائيل ابن عيراد بن جنوك بن قايين بن آدم — أنظر الاصحاح الرابع من سفر التكوين . وقايين هو المسمى عند العرب بقابيل الذي طوعت له نفسه قتل أخيه هابيل فقتله . وقد وردت قصة الأخوين في أوائل سورة المائدة